الباب العاشر

الثراءُ حقيقةٌ واقعة

قال الله سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

الثراء حقيقة واقعة

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [لقمان: ٢٦].

إن الكون مبني على الوفرة..

وقلة الموارد هي الخدعة الكبرى التي صدقتها البشرية..

فالغنيُّ الحميد سبحانه لا يخلق أرضًا ناقصة..

وإنما خلق السماوات والأرض كاملتين..

غنيتين ثريَّتين..

والإنسان..

هو خليفة الله في هذه الأرض..

كما قال الله سبحانه للملائكة:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾ [البقرة: ٣٠].

والله سبحانه قد خلق له جميع ما في الأرض، كما قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾ [البقرة: ٢٩].

هذه هي الحقيقة..

الحقيقة التي قد تبدو غريبة على عقول اعتادت ذكر القلة والحاجة والعوز..

على عقول اعتادت على الزحام والصخب..

عقول اعتادت على الضوضاء وعشوائية التصرف..

اعتادت على السير في شوارع ضيقة..

وعلى العيش تحت سقف يرتفع لثلاثة أمتار بعد سنوات طويلة من العناء..

عقول !

عقول اعتادت أن الحقائق التي لا يذكرها الكتاب المدرسي ليست حقائق من الأساس..

عقول اعتادت الظلم والمهانة والاستكانة لهما..

اعتادت الفقر باعتباره قضاء الله وقدره..

مع أن الله سبحانه قال: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فتمسكت هذه العقول بوعد الشيطان ونسيت وعد الله..

تمسكت بالفقر ونسيت الفضل والسعة والعلم..

عقول اعتادت الخوف على من يقول الحق من البطش به..

عقول اعتادت مشاهدة الحزن والمآسي في الأعمال الدرامية المختلفة..

عقول اعتادت قول "اللهم اجعله خير" بعد كل بسمة وضحكة من القلب ..

عقول اعتادت المفاهيم الخاطئة على أنها هي الصواب ولا صواب غيرها..

اعتادت الظلام وكراهة الخروج منه..

أمثال هذه العقول تستغرب مثل هذه الحقيقة الساطعة..

حقيقةُ أن الدنيا مبنية على الوفرة..

بحيث ينال منها كل إنسان ما يحتاج وأكثر..

كما قال الواسع العليم سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠].

حقًا..

إن كان يوجد قلة فعلًا، فهي ليست قلة موارد..

وإنما هي قلة شكر..

قلة شكر..

هذا..

وقد بشّر النبيُّ الخاتم عليه الصلاة والسلام الناس بالغِنَى..

كل الناس..

فعن (أبي موسى الأشعريّ) ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال:

"ليأتينَّ على الناسِ زمانٌ، يطوف الرجلُ فيه بالصدقة من الذهب، فلا يجد أحدًا يأخذها منه".

(رواه مسلم).

وهذا الحديث يدخل في فرعٍ حديثٍ من العلوم يُسمى "علم المستقبليات"..

وهو علم يقوم على التنبؤ العلمي لما ستكون عليه الحياة من تطور وحضارة في المستقبل..

ذلك..

ولا يصح القول بأن رسول الله ﷺ يطرح نبوءات..

وإنما هو - عليه الصلاة والسلام - يقرر وقائع..

حتى وإن كانت تلك الوقائع لم تحدث بعد..

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣، ٤].

ذلك..

وقد تتصور العقول سالفة الذكر أن هذا الحديث الشريف لن يتحقق إلا قبيل قيام الساعة..

وأن كثرة الأموال والذهب بهذه الصورة إنما هو من علامات القيامة الكبرى !..

لماذا هذا التصور؟!

هل خزائن الرحمن ستنفد إذا كثرت الأموال وفاض الذهب بين الناس على مر العصور؟!

أم أن أسماء الله الحسنى (الكريم) و(الغني) و(المُغني) و(الواسع) و(ذي الجلال والإكرام) لا تتجلى في الكون إلا في أزمان معينة؟!

سبحان الله..

ألم تفيض الأموال في عهد (عمر بن عبد العزيز) - عليه رضوان الله - لدرجة أن

الناس كانوا يخرجون بصدقاتهم ولا يجدون أحدًا يقبلها منهم؟!

بل أكثر من هذا..

لقد أخرج الإمام (أبي حنيفة) – رحمه الله تعالى – في درس علمٍ له كيسًا مكتوبًا عليه:

"هذا مقدار حبة القمح في عهد عمر بن عبد العزيز"..

ولَّما أخرج الإمام حبة القمح وجدها تلامذته وأصحابه في حجم نواة البلح !..

ما المانع من تكرار ما حدث في عهد (عمر بن عبد العزيز) من الغنى والثراء والبركة ألف مرة؟!

مليون مرة ؟!

ما المانع؟!

المانع هو الأفكار العقيمة التي يملأ الإنسان بها رأسه..

الأفكار التي تكبِّل الإنسان وتقيده عن الاستمتاع بنعم الله عليه..

إن تأثير هذه الأفكار رهيب حقًا..

لدرجة أنك تجد أغلب الناس عندما يقولون "الحمد لله" فهم يقصدون حدوث سوءٍ أو مكروه!

وإذا تلذذوا بطعامٍ أو شرابٍ شهيٍّ تساورهم الظنون بأنه ليس حلالًا !

يعتقدون أن أصل المعيشة في الدنيا هو الضنك والعناء !

وأن حب الله للعبد مقرونٌ بالبؤس والشقاء !

عكسوا مراد الله من قوله:

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

فصار في عقولهم وعيونهم أهل الذكر هم أهل المسكنة والذلة !

وأهل الاتباع هم أهل الضلال والحسرة !

صعبوا الدنيا على أنفسهم بأفكارهم الخاطئة وعقولهم السقيمة..

ولو اعتدلت أفكارهم وصحت عقولهم لعلموا أن الله سبحانه ما جعل هداه إلا ليَنعَم الناسُ..

وما حببهم إلى ذكره إلا ليمتعهم بجنة الدنيا قبل جنة الآخرة..

كما قال الرحيم الرحمن:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

فهلَّا اطمأنت النفوس وارتاحت العقول والأبدان ؟!

يقول رسول الله ﷺ:

"من سعادة المرء المسلم: المسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء".

(رواه البخاري)(٨٠).

ولكن تلك الأفكار العقيمة تجعل سعادة المرء المسلم في المسكن الضيق، والجار السيء، ونكد العيش، والبعد عن الراحة !

وكأن سعادة الآخرة لا ينالها الإنسان إلا بالشقاء في الدنيا !!

(٨٠) في (الأدب المفرد) بسنده عن (نافع بن الحارث) ﷺ.

إن الأفكار السقيمة لا تستقيم مع مراد الله من خلقه.

ولا تتوافق مع شرعه وسنة نبيه.

مرَّ الإمام الحافظ (ابن حجر العسقلاني)[٨١] – رحمه الله تعالى – يومًا بالسوق ..

وهو في موكبٍ عظيم، وهيئة جميلة..

فاستوقفه يهودي يرتدي أسمالًا بالية، وقبض على لجام بغلة الإمام، وقال له:

إن نبيكم يقول إن (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)..

كيف ذلك، وأنت في هذا الترف والاحتفاء؟! .. أيُّ سجنٍ أنتَ فيه، وأيُّ جنةٍ أنا فيها؟!

فقال له (ابن حجر العسقلاني) رحمه الله:

أنا وإن كنتُ كما ترى من السَّعة بالنسبة لما يكون للمؤمن في الجنة كأنني في سجن..

وأنت بما أنت فيه من الفقر بالنسبة لما يكون في الآخرة للكافر كأنك في جنة..

فأعجب اليهودي هذا المنطق..

وشهد شهادة الحق[٨٢].

أين هذه الأفكار والقناعات منا الآن؟!

لا شك أنه عندما تبدلت هذه القناعات تبدلت أحوال الناس..

---

(٨١) وهو قاضي قضاة (مصر) في زمنه، وهو أيضًا صاحب المجلد الخالد (فتح الباري في شرح صحيح البخاري).

(٨٢) المقصود: شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدًا عبد الله ورسوله.

وإذا كانت أفكار (عمر بن عبد العزيز) و(ابن حجر العسقلاني) لا يعمل بها الناس..

ومن قبلهما أحاديث رسول الله وسُنته لا يفهمها الناس فهمًا صحيحًا..

فلا عجب أن يكون أغلب حال الناس اليوم على ما ترى من الذل والمسكنة..

وإنا لله وإنا إليه راجعون..

قديمًا قال أئمة وعلماء المسلمين: "الفوائد في العقائد".

فلينظر كل امرؤ إلى ما يعتقد في أفكاره وقناعاته لأنه سيستفيد أقصى استفادة عندما يعتقد في كل ما هو نافع وجميل. كما قال النبي ﷺ: "احرص على ما ينفعك". فاحرص أن تكون أفكارك ومعتقداتك في صالحك. سينفعك هذا بالتاكيد.

عزيزى القارىء الكريم..

دعنا نسترجع ذاكرة التاريخ لنستعيد معًا هذا المشهد..

مشهد (عَدِيّ)..

ابن (حاتم الطائي) الذي ضربت به العرب المثل في الجود والكرم..

(عَدِيّ) الآن يسافر من أرض الروم التي ذهب إليها وأقام فيها وتدين بدين أهلها النصارى..

يعود (عَدِيّ بن حاتم الطائي) إلى أرض العرب ليرى هذا الذي يزعم أنه رسول..

رسولٌ من عند الله..

بعد ما بلغه من اجتماع الناس إلى هذا النبيّ، وما يدعو إليه من الأخلاق الحسنة..

يتحدث (عديّ) عن هذه الفترة فيقول:

"بُعِثَ النبيُّ، وكنتُ من أشد الناس له كراهية، وكنتُ بأقصى أرض العرب من الروم، فقلتُ لآتين هذا الرجل، فإن كان صادقًا لا يَخفَى عليَّ أمره، وإن كان كاذبًا لا يَخفَى عليَّ أمره".

دخل (عديّ) (المدينة المنورة)، فعرفه الناسُ، وهم يقولون:

(عديّ بن حاتم الطائي)..

إعجابًا بمجيء ابن اسطورة العطاء والكرم..

حتى أتى إلى النبيّ..

فاستقبله النبيّ وأكرم وفادته..

يجلس الآن (عَدِيّ بن حاتم الطائي) عند النبي عليه الصلاة والسلام..

فإذا برجل يأتي إلى النبيّ يشكو إليه الفاقة..

ثم ينصرف بعد ما أعطاه النبيّ من مال ونفقة..

ويأتي رجل آخر يشكو للنبيّ قطع السبيل وقطاع الطرق..

ثم ينصرف بعد أن ردَّه النبيّ بميسورٍ من القول..

ويلتفت النبيّ عليه الصلاة والسلام إلى (عديّ بن حاتم الطائي) مبتسمًا.. ويعرض عليه الإسلام..

ويتجاذب معه أطراف الحديث بكل هدوء ووقار ومودة..

حتى قال له:

"إنه يمنعك من أن تُسلِم خصاصةُ فقر من ترى حولنا، وأنك ترى الناس علينا يدًا

واحدة؟!".

يعني أن أغلب من دخل الإسلام في هذا الوقت كانوا من الفقراء..

وأن قبائل الجزيرة العربية تجتمع على عداوة النبيّ ومحاربة دينه..

فلما سمع (عديّ) هذا قال:

"نعم"..

فابتسم النبيُّ عليه الصلاة والسلام وسأله:

"يا عديّ هل رأيتَ الحِيْرَة؟!"

تعجب (عديّ) كثيرًا من هذا السؤال..

ما دخل (الحِيرة) بالموضوع..

فـ(الحِيرة) مدينة في (العراق) لم يذهب إليها (عديّ) من قبل..

و(العراق) كلها في هذا الوقت تحت حكم الإمبراطورية الفارسية !

جالت هذه الأفكار برأس (عديّ) بعد السؤال مما جعله يقول:

"لم أرها وقد أنبئتُ عنها"..

فقال له النبيُّ:

"فإن طالت بكَ حياةٌ لترين الظعينة ترتحل من الحِيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله".

والظعينة هي المرأة المسافرة، التي تركب الهودج المحمَّل بالأشياء الثمينة..

والمقتنيات الفاخرة..

فتعجب (عديّ) من هذا أكثر..

وأخذ يحدث نفسه بشأن قبيلة (طيء) التي قد نهبت البلاد وقطعت الطريق..

قبيلة (طيء) التي يخاف من سطوتها الرجال الأشداء ..

فضلًا عن النساء..

وانتبه إلى بقية كلام النبيّ وهو يقول:

"ولئن طالت بك حياةٌ لَتُفتحنَّ كنوز (كِسرَى)"..

فاندهش (عديّ) أكثر، وسأل النبيّ:

(كسرى بن هُرمُز) ؟!

فيومىء النبيّ عليه الصلاة والسلام برأسه إيجابًا وهو يقول مبتسمًا:

"(كسرى بن هرمز)"..

ثم يواصل حديثه لـ(عديّ بن حاتم) قائلًا:

"ولئن طالت بكَ حياةٌ لترين الرجل يُخرِج ملء كفه من ذهبٍ أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه"..

ويتواصل سيل المعلومات النبوية من بين شفتي النبيّ ليضيء عقل (عديّ) بحقائق أكثر..

"وليلقين الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه ترجمان يترجم له، فيقولن: (ألم أبعث إليكَ رسولًا فيبلغك ؟!)، فيقول: بلى، فيقول: (ألم أعطكَ مالًا وأتفضلُ عليكَ؟!)،

فيقول: بلى، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم، وينظر عن يساره فلا يرى إلا

جهنم".

كل هذا و(عديّ) يستمع وينصت إلى النبيّ بكل حواسه..

إلى أن سمعه يقول:

"اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد شق تمرة فبكلمة طيبة".

وتمر الأعوام..

ويموت النبيّ ﷺ.

وتمضي الحياة بـ(عديّ بن حاتم الطائي)..

إلى أن يرى ما ذكره له النبيّ واقعًا ملموسًا حيًّا..

يقول (عديّ):

فرأيتُ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله..

وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز..

ثم يقول للناس حوله بكل يقين وثقة:

ولئن طالت بكم حياةٌ لترون ما قال النبيّ أبو القاسم ﷺ.

يقصد خروج الناس بملء أكفها من الذهب أو الفضة لتتصدق به فلا يجدون فقيرًا..

عزيزي القارىء..

ما أجمل هذا الموقف..

الذي يجعل من يعرفه على ثقةٍ تامة..

في أن الغنى حقيقة واقعة..

يعيشها كل الناس..

وستستمتع – عزيزي القارىء – بما قرره نبيّ الإنسانية..

ذلك النبيّ الذي بعثه الله إلى الناس جميعًا..

ليخرجهم من ضيق الدنيا..

إلى سعة الدنيا والآخرة..

هذا..

وعن (عمرو بن عوف الأنصاري) ﷺ أن رسول الله ﷺ بعث (أبا عبيدة بن الجراح) ﷺ إلى (البحرين) يأتي بجزيتها..

فقَدِمَ بمال من (البحرين)..

فسمعت الأنصار بقدوم (أبي عبيدة)، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ .. فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف..

فتعرضوا له..

فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم..

ثم قال:

"أظنكم سمعتم أن (أبا عبيدة) قَدِمَ بشيء من(البحرين)"..

فقالوا:

أجل يا رسول الله..

فقال:

"أبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم"..

(رواه البخاري ومسلم).

عزيزي القارىء..

الغنى هو القاعدة..

أما الفقر فهو الاستثناء..

هذا هو أول قانون كوني يجب أن تتعامل من خلاله مع معطيات الحياة.

خلاصة الباب:

الأفكار الخاطئة والقناعات السقيمة هي التي تكبِّل الإنسان، وتقيده عن الاستمتاع بنعم الله .. والله سبحانه قد خلق الكون كله مبنيًا على الوفرة والتنوع والسعة .. حتى يأخذ كل مخلوق ما يحتاجه وأكثر .. فمن اعتقد بعكس هذه الحقيقة، فقد ضيق على نفسه وظلم نفسه .. مما ينعكس أثره على حياته .. وأما من سار في الحياة وفقًا لهذه الحقيقة، فقد فتح لنفسه أبواب الغنى .. نسأل الله سبحانه أن نكون من أهل السعادة في الدنيا وفي الآخرة .. آميـــــــــــــــــــــــــن.